تمهيـــد

تمهيـــد

مصر .. هذه الأمة العظيمة والأرض الطيبة والتى بذغ معها فجر التاريخ وبدأت معها معالم الحضارة والمدنية فى هذا العالم .. مصر .. التى قدر لها أن تكون أول أمة تحمل رسالة حضارية تاريخية خالدة ، والتى كانت ولا تزال قبلة الأمم التى يؤخذ منها أصول الحكمة ومنابع المعرفة .. مصر .. التى اعتبرها المؤرخون محور أحداث التاريخ منذ نشأته والتى ارتبط مصير الشرق كله بها عبر العصور المختلفة ، والتى لا يمكن أن تعبر عن عظمتها الكلمات بل ومئات المؤلفات ، والتى أنحنى أمام مجدها وشموخها أعظم الدول والإمبراطوريات !

لقد حبى الله مصر بكم مهول من الموارد الطبيعية الثرية ، والتى تمثلت فى شمس ساطعة ، ونهر طيب قامت على ضفافه أول حضارة زراعية مستقرة فى التاريخ ، وموارد معدنية متنوعة ، وكافة المصادر الطبيعية الأخرى ، التى أتاحت للمصريين التفرغ لبناء حضارتهم فى سلام وطمأنينة .. وقد اتسمت هذه الطبيعة المصرية بالهدوء والاستقرار ، فلم يعرف المصريون الفيضانات المدمرة أو العواصف والأعاصير كتلك التى كانت تشهدها حضارات بلاد ما بين النهرين فى العراق القديم ، والتى تركت أثرها العنيف فى سلوك وفكر السكان هناك .. كما أحيطت مصر بصحراوات واسعة شرقاً وغرباً وبجنادل النيل جنوباً ، الأمر الذى منع تعرضها لأى نوع من الغزوات أو الهجمات الخطيرة ، التى كان من الممكن أن تتسبب فى تهديد أمنها وحضارتها خلال العصور والمراحل الأولى من تاريخها .. ومن ثم فإنه لم يكن غريباً أن تتسم شخصية المصرى القديم منذ فجر تاريخه بالسماحة والسلم والعمل على البناء والتشييد ، وكراهية الحرب والدمار والصراع.

وفى حوالى عام ٣٢٠٠ ق. م تكونت بمصر أول دولة ذات حكومة مركزية فى التاريخ ، وقد تم هذا فى أعقاب نجاح ملوك مصر العليا (الصعيد) فى توحيد البلاد بعد انتصارهم على مملكة مصر السفلى (الدلتا) بعد سنوات طويلة من الحروب والصراع التى قامت بين مملكتى الجنوب والشمال ، والتى تمكن ملوك الجنوب فيها من تحقيق انتصارهم التاريخى الحاسم على يد الملك « نعرمر » أو « مينا » الأسطورى ، لتصبح مصر بعدها أمة موحدة ودولة ذات كيان

واحد ، أتخذت من مدينة منف أول عاصمة لها .. ومما لا شك فيه أن هذا الحدث التاريخى الفريد قد كان له شأن عظيم لا فى تاريخ مصر وحدها بل فى تاريخ العالم القديم كله ، فقد بدأت مصر مرحلة جديدة فى تاريخها عرفت باسم عصور الأسرات الوطنية وأصبح ملوك الوحدة هم رأس الأسرة المصرية الأولى ، كما سبقت مصر العالم فى معرفتها لمفهوم الدولة المركزية وما يتبع هذه الدولة من مؤسسات مختلفة تستطيع الحفاظ على هذا الكيان السياسى ، وأصبح منذ ذلك الحين ملوك مصر هم الرمز الخالد لمركزية وقوة هذه الدولة وهذه الوحدة السياسية بين الجنوب (الصعيد) والشمال (الدلتا) ، والتى نظر المصريين إليها على أنه الأساس الصلب فى بقاء أمتهم ، حيث دلت الألقاب والنعوت الملكية وكذلك مسميات المؤسسات الحكومية المختلفة المؤكدة على وحدة شطرى الجنوب والشمال والدمج بينهما – منذ عهد مبكر – على هذا الفكر القومى والسياسى لدى المصريين ، والذى كان يعتمد على المركزية الشديدة فى تكوينه السياسى وجعل كافة السلطات فى يد الفرعون الحاكم.

ومنذ فترة مبكرة من تاريخهم نظر المصريون نظرة حذرة ومتربصة تجاه الشعوب الأجنبية المحيطة بهم فى الشرق والجنوب والغرب والتى كان من الممكن أن تسبب تهديداً حقيقياً لأمن وحدود مصر ، فظهر لديهم مصطلح « الأقواس التسعة » الذى كان يشير إلى الأعداء التقليديين للدولة المصرية ، وقد تغيرت الشعوب والأمم المنتمية لهذا المصطلح عبر العصور المختلفة من تاريخ مصر القديمة وفقاً لتغير أعداء مصر من فترة لأخرى ، وإن ظل النوبيين (سكان الجنوب) والأسيويين (سكان الشرق) ثابتين دائماً ضمن هذه الشعوب المعادية .. ولعل أول تجسيد للأقواس التسعة قد مثل من خلال تمثال « جسر » (زوسر) الشهير من الأسرة الثالثة ، حيث وضعت قدمه على مناظر تمثل شعوب الأقواس التسعة .. ومن ثم فإنه يبدو أن نظرة المصريين القدماء الثاقبة لأمنهم القومى ورؤيتهم الحذرة لكل الشعوب التى من الممكن أن تهدد سلامة واستقرار وبقاء دولتهم قد ظهر منذ فترة مبكرة فى تاريخ الدولة المصرية ، وأنه قد أصبح بمثابة عقيدة سياسية راسخة ومتوارثة لديهم جعلتهم على دراية واسعة بما قد ينتظر هذه الدولة من صراعات وتحديات من أجل البقاء والوجود.

وخلال عصر الأسرة السادسة بدأت تظهر بواكير أول جيش نظامى فى مصر القديمة ، فمن خلال نص الموظف « ونى » الذى قاد عدة حملات عسكرية فى غربى آسيا خلال عهد الملك « ببى الأول » (٢٣٢١ – ٢٢٨٧ ق. م) ، تجلت سياسة الدولة المصرية التى اعتمدت على جمع الجيوش من عشرات الآلاف من المجندين ، من أسوان وحتى أطفيح ، ومن النوبيين والليبيين ومن الدلتا ، وذلك لمواجهة البدو القاطنين على حدود مصر الشرقية الذين قاموا بإحدى غاراتهم على الدلتا. ولما كانوا أكثر من أن تستطيع فرق المقاطعات الواقعة على الحدود مواجهتهم ، فقد قرر الملك « ببى الأول » استدعاء جميع الفرق العسكرية لتعمل تحت إمرة أحد كبار رجال عهده وهو « ونى » ، الذى نجح فى قيادة الجيش المصرى وحقق النصر على الأسيويين .. ومن خلال نص « ونى » المسجل على لوحته التى كانت قائمة فى مقبرته بأبيدوس والتى قد نقلت إلى المتحف المصرى بالقاهرة ، يروى هذا القائد أخبار حملته العسكرية قائلاً : « حارب جلالته سكان الرمال الأسيويين ، وقد حشد جيشًا مؤلفًا من عشرات الآلاف من الجند من مصر العليا والسفلى ، وقد عيننى جلالته قائدًا لهذا الجيش ». ويستمر « ونى » فى سرد أحداث الحملة وتفاصيلها ، ثم يذكر بعض السلوك الحضارى للجيش المصرى فيقول : « لم يتشاجر أحد منهم مع غيره ، ولم ينهب أحد خبزًا من أية مدينة ، ولم يستول أحد على عنزة واحدة » .. ويتضمن نص « ونى » أنشودة النصر التى كانت ترددها الجيوش المصرية ، وهى عائدة إلى أرض الوطن منتصرة حيث نقرأ : « عاد هذا الجيش فى سلام ، وقد مزق ساكنى الرمال .. عاد هذا الجيش فى سلام ، وقد دمر حصون الأعداء .. عاد هذا الجيش فى سلام ، وقد أشعل النار فى أرض عدوه .. عاد هذا الجيش فى سلام ، وقد قتل عشرات الآلاف من جنود الأعداء .. عاد هذا الجيش فى سلام ، وقد أسر آلاف الجنود » .. ويرى بعض المؤرخين أن تقرير « ونى » لم يخلُ من المبالغة فى تصوير كثافة جيوشه ، وحين ادعى أن جنوده لم يحيدوا عن جادة الصواب فى كل كبيرة وصغيرة ، ولكنه لم يخل من دلالات تاريخية صرفة ، منها أن المصريين قد تعودوا خلال عصر الدولة القديمة على أن يجندوا قطاعًا واسعًا من إمكانات البلاد لأغراض الدفاع والهجوم ، كلما آن أوانها ، ومنها أنهم اطمأنوا إلى إخلاص بعض النوبيين والليبيين واستعانوا بهم فى جيوشهم ، ومنها أن رجال الدين كان لهم دور فى الحروب ، وربما كانوا يثيرون حماس الجنود ، ويذكرونهم بالأرباب والولاء للحاكم ، والحرص على تقاليد الدين.

وخـلال عصـر الانتقـال الأول (٢١٨١ – ٢٠٥٥ ق.م) شـهدت مصـر حالـة مـن الانقسـام والحرب أهلية بين الأقاليم المصرية ، الأمر الذى ترك أثره العميق وصداه الواسع فى الأدلة الأثرية والنصية التى وصلت إلينا من هذا العصر ، فقد برز الحديث عن الحرب الأهلية بين إقليمى طيبة وإهناسيا من خلال أحد التعاليم والنصوص التاريخية الشهيرة التى نسبت إلى أحد الملوك الإهناسيين ، بجانب الحث على بث الروح الحربية وتجنيد الشباب فى الخدمة العسكرية التى وردت على لسان هذا الملك .. كما صورت مناظر الحصار واقتحام الحصون على جدران مقابر بعض حكام الأقاليم ، مما يشير إلى طبيعة الروح العسكرية التى بدأت تسود مصر آنذاك ، بعد أن علا صوت القتال وساد منطق الحرب فوق كل شىء .. وقد أنتهى الصراع بانتصار الطيبيين بقيادة ملكهم « منتوحتب نب حبت رع » ، الذى استطاع هزيمة البيت المالك فى إهناسيا ، وإعادة الوحدة إلى ربوع مصر مرة أخرى بعد تلك الحرب الأهلية المريرة التى خاضتها لسنوات طوال ، وبدأ ذلك الفرعون المنتصر حقبة جديدة فى تاريخ مصر عرفت باسم عصر الدولة الوسطى.

ومع بداية مصر لعهد جديد فى تاريخها خلال عصر الدولة الوسطى (٢٠٥٥ – ١٦٥٠ ق. م) ، اتسم بالوحدة والتقدم والازدهار ، شهد هذا العصر قيام المصريين بحملات حربية هامة فى تاريخهم على بلاد النوبة ، تمكنت من فرض النفوذ السياسى والحربى للدولة المصرية هناك حتى منطقة الجندل الثانى ، وذلك على يد الملك « منتوحتب الثانى (نب حبت رع) » من الأسرة الحادية عشرة ، والملوك « أمنمحات الأول » و« سنوسرت الأول » و« سنوسرت الثالث » من الأسرة الثانية عشرة .. وتعد الحملات الأربعة التى قام بها الجيش المصرى تحت قيادة الملك المحارب « سنوسرت الثالث » (١٨٧٤ – ١٨٥٥ق. م) – الذى يعد أحد أشهر القادة العسكريين فى مصر القديمة – على بلاد النوبة بمثابة علامة تاريخية فاصلة فى تاريخ العسكرية المصرية ، وقد قام بتخليد ذكراها من خلال لوحة عند حصن سمنة الواقعة جنوب الجندل الثانى .. ولقد سجل « سنوسرت الثالث » من خلال لوحة سمنة الشهيرة تلك العبارة التاريخية الخالدة التى تجلت من خلالها رؤية وعقيدة ملوك مصر تجاه حدودهم التى اعتبروها بمثابة قدس أقداس الدولة المصرية فقال : « إن أيا من ولدى يستطيع أن يحمى

الحدود التى أقرها جلالتى ، فهو ولدى ومن صلبى ، وإنه لمثل صادق لذلك الابن الذى يحمى أباه ، ويذود عن حدوده .. فأما من قعد عن ذلك ولم يذد عن حدودى ، فهو ليس ابنى " .. وبغض النظر عن الانتصارات الحربية والتوسع العسكرى الذى حققه المصريون فى بلاد النوبة جنوباً خلال عصر الدولة الوسطى ، فإن هذا الأمر لم يكن السمة الحربية الأبرز خلال تلك الحقبة ، بل تمثلت السمة الأبرز فى براعة المصريين فى تشييد مجموعات من الحصون الاستراتيجية الهامة فى بلاد النوبة ، فى مناطق بوهن وأسكوت وشالفاك وأورونارتى وسمنة وقمنة ، والتى كان للملك " سنوسرت الثالث " – أعظم الملوك المحاربين فى الأسرة الثانية عشرة – الفضل الأكبر فى تشييد معظمها ، حيث كان هذا الانجاز المعمارى والعسكرى علامة بارزة فى التاريخ العسكرى المصرى وفى تاريخ العمارة العسكرية فى العالم القديم.

ومع سقوط ونهاية الدولة الوسطى تعرضت مصر وحضارتها لمحنة كبرى وقاسية ، حيث وقعت خلال عصر الانتقال الثانى كفريسة للغزاة المتبربرين الهمج من الهكسوس الذين اجتاحوا مصر من حدودها الشمالية الشرقية ، فكانت المرة الأولى فى تاريخ مصر التى تتعرض فيها للاحتلال الأجنبى على يد هؤلاء الغزاة الأسيويين المتبربرين ، الذين أذلوا مصر وشعبها كما وصفتهم النصوص المصرية. وكان ذلك الأمر بمثابة صدمة وضربة كبرى حلت بمصر وبحضارتها الرفيعة ، ووجدت مصر نفسها أمة محتلة تحت نير الذل والهوان ، وهى تلك الأمة الشامخة العظيمة الحضارة المعتزة بنفسها وبحضارتها وبقيمها ، والتى يسعى الجميع إليها لينهل من معين حضارتها تلك. ومن ثم فقد أدرك المصريون وقتها ما للقوة الحربية من أهمية كبرى وبالغة فى سبيل تحقيق الأمن والأمان والاستقرار ، وكان ذلك الغزو البربرى القادم من آسيا درساً قاسياً ليدرك المصريين أن حضارتهم ودولتهم وأمتهم لن يكون لها وجود إلا من خلال توافر القوة العسكرية اللازمة لحماية أمنهم ومنجزاتهم الحضارية. فقد كان لهزيمة المصريين الحربية أمام الهكسوس أثر نفسى عميق وكبير فى الشخصية المصرية ، خاصة إذا علمنا أن الهكسوس كانوا من الشعوب المحاربة الشرسة بالفطرة ، فجاء التحول الكبير والحاسم فى شخصية المصرى القديم ، الذى تحول من شخص مسالم منشغل بالاستقرار والزراعة والتشييد على ضفاف النيل إلى جندى محارب شديد البأس والقوة ، استطاع فرض قوته وسطوته العسكرية والقتالية على سائر شعوب وأمم العالم القديم.

كان بديهياً أن يدرك المصريون أن التخلص من نير الاحتلال الأسيوى لن يأتى الا بإرادة شعبية عظمى وقوة عسكرية ضاربة ، فقضى المصريون وقتاً طويلاً فى الاعداد لحرب التحرير ضد المحتلين الهكسوس ، وعمل ملوك الأسرة السابعة عشرة فى طيبة على بث روح الجهاد والكفاح والمقاومة فى نفوس أبناء الشعب المصرى استعداداً لخوض هذه الحرب المجيدة. وعملت القيادة العسكرية المصرية على تكوين جيش وطنى قوى مدرب على أسس علمية رفيعة المستوى ، بل وعملوا كذلك على تطوير آلة الحرب المصرية بشكل كبير لمواجهة آلة الحرب المتفوقة للمحتل الأسيوى ، والتى كانت تتمثل فى استخدامهم للعربات (المركبات) الحربية التى لم تكن تتوافر لدى المصريين ، فعمل المصريون على اقتباس ذلك السلاح الضارب من عدوهم ، ولم يكتفوا بذلك بل أضافوا إليه تقنيات متطورة ليتحقق لهم التفوق العسكرى المنشود على عدوهم .. وبالفعل خاض الملوك العظام من الأسرة السابعة عشرة " سقنن رع تاعو الثانى " و" كامس " حرب التحرير المجيدة ضد الغزاة الهكسوس ، وحقق " كامس " انتصارات حاسمة ضد أعداء مصر حدت من مناطق تواجدهم كثيراً ، حتى جاء الانتصار العسكرى الكبير والحاسم والتحرير على يد فرعون مصر الباسل الملك " أحمس الأول " – مؤسس الأسرة الثامنة عشرة وعصر الدولة الحديثة – الذى استطاع طرد الهكسوس من مصر نهائياً ، بل ومطاردتهم وتتبعهم فى فلسطين ولبنان ، لتتخلص مصر نهائياً من ذلك المحتل البغيض ، ولتبدأ مرحلة جديدة ومجيدة فى تاريخها العظيم ، وهو عصر الدولة الحديثة أو عصر الإمبراطورية المصرية (١٥٥٠ – ١٠٦٩ ق. م).

وقد عمل الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة على تكوين وتطوير الجيش المصرى بشكل كبير ليكون الدرع الواقى والحامى لمصر ولأمنها ولأستقرارها فى مواجهة أى غزو أو تهديد لحدودها ، ولا شك فى أن هذا التطور كان منطقياً ، نتيجة للقدرة الإدارية الفذة التى كان يتصف بها نظام الحكم فى مصر القديمة ، والتى اكتسبها من تراكم خبرات تاريخ طويل فى تنظيم وإدارة دفة الحياة على أرض وادى النيل. كذلك فقد كان هذا التطور نتيجة للأثر النفسى الذى تركته تجربة مصر المريرة مع الغزاة الهكسوس ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ظهور وتأسيس أول مؤسسة عسكرية فى تاريخ العالم ، تتمتع بأعظم قدر من القوة الاستراتيجية ..

وبالفعل شهدت النظم العسكرية المصرية تطوراً مذهلاً فى كافة أفرع القوات المسلحة المصرية مع مطلع عصر الدولة الحديثة ، وقسم الجيش المصرى إلى فرق من المشاة والمركبات الحربية والقوات البحرية ، بل شمل التطور كذلك نظم التسليح المختلفة داخل الجيش المصرى .. ولقد تحقق التفوق فى آلة الحرب المصرية ، والتفوق الهائل للجيش المصرى ، منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر قبل الميلاد ، واستمر بلا انقطاع لمدة تصل إلى نحو مائتى سنة متصلة. وإذا قمنا بمقارنة المستوى الحربى للجيش المصرى فى عصر الدولة الحديثة بمستوييه الآخرين فى عصرى الدولة القديمة والدولة الوسطى للمسنا على الفور مدى التفوق الذى بلغه الجيش المصرى خلال عصر الدولة الحديثة .. ومن المؤكد أن الجيش المصرى خلال عصر الدولة الحديثة كان أكبر قوة عسكرية ضاربة فى التاريخ القديم ، حيث استطاع ذلك الجيش تكوين إمبراطورية مصر الكبرى خلال تلك الحقبة ، بعد أن فرض قوة ونفوذ وهيبة مصر السياسية والحربية الواسعة لتشمل تلك الإمبراطورية سوريا وفلسطين شمالاً وبلاد النوبة حتى الجندل الرابع جنوباً بفضل إنتصارات الجيش المصرى.

وخلال تلك الحقبة أدرك المصريون أن حدودهم الطبيعية تبدأ من أعالى الفرات شمالاً فى سوريا ، وأن الرؤية الاستراتيجية الوحيدة فى عدم تكرار تجربة غزو الهكسوس المريرة يتمثل فى بناء إمبراطورية مصرية فى سوريا وكنعان (فلسطين) لتحقيق السيطرة السياسية والعسكرية المصرية فى تلك المناطق ، ليس بغرض الاستعمار وانما لنشر السلام المصرى فى هذه البقاع وتأمين الحدود المصرية من أى موجة غزو جديدة قد تحل بالمنطقة .. وسوف تبلغ حدود الإمبراطورية المصرية أقصى امتداد لها خلال عهد الفرعون المحارب العظيم « تحوتمس الثالث » ، وسيمتد النفوذ السياسى والعسكرى المصرى من أطراف نهر الفرات شمالاً إلى الجندل الرابع ببلاد النوبة جنوباً .. وستخوض مصر – بداية من عهد الأسرة الثامنة عشرة وطوال عهد إمبراطوريتها – سلسلة متصلة من الصراعات السياسية والمعارك الحربية الضارية فى منطقة الشرق الأدنى القديم ، ضد كل القوى والممالك والإمبراطوريات التى ستحاول مجابهة النفوذ السياسى والعسكرى المصرى فى المنطقة .. وستسجل صفحات التاريخ كفاح باسل سيخوضه المصريون من الفرات إلى الجندل الرابع حفاظاً على أمنهم القومى

وسلامة حدود أمتهم المقدسة .. وهذا ما سوف يطالعه القارئ فيما يلى من فصول وصفحات فى هذه الدراسة ، التى نحاول فيها توثيق هذا الكفاح التاريخى لأجدادنا العظماء ، والقاء الضوء على ما حققوه من فكر إستراتيجى رفيع ومجد عسكرى عظيم أذهل التاريخ استطاعوا من خلاله تكوين أول إمبراطورية فى العالم القديم ، وإن كان الغرض من هذا الكفاح والتوسع العسكرى هو الحفاظ على أمن مصر القومى والدفاع عن حدودها المقدسة وفرض السلام المصرى المسلح فى المنطقة ، وليس استعمار الشعوب ونهب ثرواتها وحكمها بالقوة العسكرية كما فعلت إمبراطوريات العالم القديم .. فقد كان المحارب المصرى قديماً وحديثاً صاحب رسالة سامية شكلت ملامحها حضارته العظيمة وسمات الأرض الطيبة التى جاء منها.

وأتمنى من الله – عز وجل – مخلصاً أن أكون قد وفقت فى تقديم هذه الصفحة المضيئة من تاريخ مصرنا الغالية ، التى اسأل الله أن يحفظها وأن يصون شعبها الأبى .. وما توفيقى إلا بالله العلى العظيم .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين أجمعين.

دكتور / محمد رأفت عباس